"حجاجية النص الشعري"

–قصيدة اقرأ كتابك أنموذجا–

د. بن يامنة سامية.

جامعة مستغانم

تمهيد:

شهدت مناهج التحليل الأدبي والنقدي تطورا كبيرا، ويعود السر في ذلك إلى التطور الذي عرفته العلوم الإنسانية من جهة، والدراسات اللسانية من جهة أخرى، والتي فتحت لدارسي ومحلّلي النصوص والخطابات الأدبية آفاقا ومساحات أكثر رحابة، تتميز بالسعة والتنوّع والخصب والغنى. ومن بين هذه المناهج "المنهج الحجاجي" الذي بيّن من خلاله أبو بكر العزاوي أنّه من أهم المناهج التي يمكن أن تعتمد في تحليل الخطاب اللغوي بعامة، والأدبي على وجه الخصوص. وهنا نشير إلى أنّ الحجاج ليس مجاله الجملة؛ إنّما يتعدى ذلك ليتعلّق بالخطاب ككل؛ من حيث طبيعته وبناؤه وتراتبية عناصره، وتنامي غاياته، وطرائق تشكيل أقواله. ومعلوم أنّ "الحجاج" موجود في كل أنماط الخطاب؛ في الخطاب القانوني والخطاب الفلسفي، و"الخطاب الشعري" أيضا باعتبار أنّ غاية الشعر ليس الإمتاع فحسب؛ وإنّما قد يهدف إلى الإقناع والتحريض، وبالتالي التأثير في المتلقي من أجل تغيير مواقفه وتجاوز سلوكاته.وضمن هذه الرؤية يندرج بحثنا، والذي نحاول من خلاله بدايةً تسليط الأضواء على طبيعة المنهج الحجاجي، ثم نكشف عن آلياته في تحليل الخطاب الشعري، لنسعى بعد ذلك إلى تطبيقه في تحليل قصيدة "اِقرأ كتابَك" لمفدي زكريا، والتي تقوم على قوى حجاجية عالية ومتنوعة تستدرج المتلقي بما تجعله يذعن للمقاصد المطلوبة.

1–حول الحجاج:

انبثق مفهوم "الحجاج" في اللغة في رحاب نظرية الأفعال الكلامية التي وضعها **أوستين وسورل**، وقد قام "**ديكرو**" بتطوير أفكارهما، كما اقترح في هذا الإطار إضافة فعلين لغويين وهما: "فعل الاقتضاء" و"فعل الحجاج"، والذي عرَّفه بأنّه «فعل لغوي موجَّه لإحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية؛ أي مجموعة من الحقوق والواجبات. ففعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار، والقيمة الحجاجية لقول ما هي نوع من الإلزام يعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره»[1].

ويمكن أن نبيّن أكثر أساسيات الحجاج عند **ديكرو** في المخطط التالي:

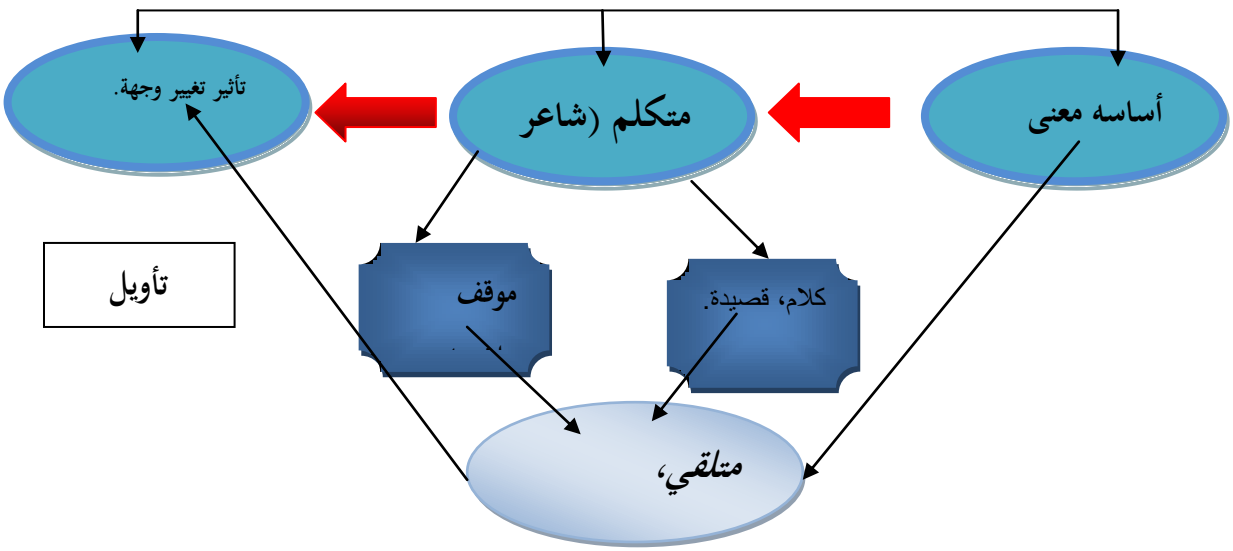

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نستشف من خلال هذا المخطط أنّ "الحجاج" عند "ديكرو" هو أساس كل دلالة؛ فهو في نظره «لم يعد نشاطا لسانيا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى نفسه، وأساس تأويله هو الخطاب»[2].

ويمكن القول إنّ فعل الحجاج يفرض دائما على المتكلّم سلطته، وتلزمه اتّباع طريقة معينة في إنتاجية الخطاب، وأن يقدّم جميع الحجج التي تقوده إلى تحقيق الغاية من الخطاب، وبالتالي فهو «يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»[3].

كما وردت عدة تعاريف تصب في جوهر الحجاج ويمكن إجمالها فيما يلي[4]:

1-"الحجاج" عند "أندرسون Andersen" و"دوفر Dover" طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية وعرضها لحل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك.

2-الحجاج عند "بريلمان Perlman" و"تيتكا tyteca" طائفة من تقنيات الخطاب التي تسعى إلى استمالة المتلقين للقضايا التي تعرض عليهم، أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة.

3-"الحجاج" فعل لغوي أو عملية اتصالية أو جنس من الخطاب التفاعلي، مع إبراز أهم مكوّناته.

ويتبدّى لنا من هذه التعاريف أنّها مبنية في الأساس على عناصر موضوعية يمكن إجمالها في كون "الحجاج" جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية معينة، يعرض فيها المتكلّم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو تعديل سلوكه اتجاه تلك القضية[5].

2-خصائص "النص الحجاجي Le texte argumenté":

يختلف "النص الحجاجي" عمّا سواه من جهة هدفه وأفكاره المترابطة، كونه يتوخى بالدرجة الأولى إقناع المتلقي بوجهة نظره؛ وبهذا يمكن اعتباره «نصا متناغما يقوم على وحدة معينة لا تكون بالضرورة واضحة جلية؛ بل قد تأتي على نحو خفي لا نكاد نلمحه، وُضِع لإقناع المتلقي بفكرة أو بحقيقة معينة عن طريق تقنيات مخصوصة»[6].

ويمكن أن نستخلص سماته في الخطاطة التالية:

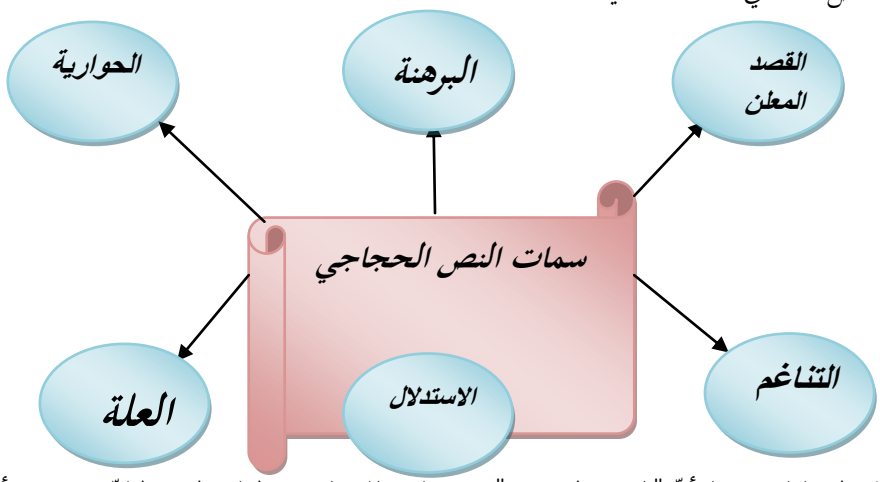

وانطلاقا من هذا المخطط نلاحظ أنّ "النص الحجاجي" يبنى على ذلك القصد المعلن الموجه لمتلقٍّ معيّن من أجل إقناعه بفكرة مبنية على المنطق في غالب الأحيان؛ كما يقوم على الاستدلال المبرهن على نظام مترابط تترابط فيه جملة من العناصر وفق نسق تفاعلي يوظف فيه المتكلّم جملة من الأمثلة والحجج، بالإضافة إلى تقنيات أخرى، وسمات أساسية أخرى أثارها الباحثون وهي: "الحوارية أو التحاورية" بحكم أنّ «النص الحجاجي في جوهره حوار مع متلق؛ حوار يقوم على علاقة ما بين مؤسس النص ومتلقيه، وهي علاقة تتخذ دون شك أشكالا عديدة يكشفها الخطاب»[7].

3- الحجاج والشعر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد أُختلف في قضية حجاجية الشعر من لدن بعض الباحثين، والذين أقرّوا بوجود تعارض بين "الحجاج" و"الشعر"؛ و من بينهم " **ستيفان تولمان** SfephenToulmin" الذي قدّم في كتابه "استعلامات الحجاج" les usages de l'argumentation" موقفا يتلخص في المعادلة التالية: **الحجاج ≠ الشعر**.

ويعلّل "**تولمين**" هذا بكون "الحجاج" يتأسس على الابتذال؛ إذ ليس هناك حجاج فردي، أو بعبارة أخرى: فإنّ الشعر يقوم على الرؤية الفردية، أمّا الحجاج فيتأسس على المعرفة المبتذلة والشائعة[8].

وفي السياق نفسه يرى " **جورج فينو"G.igneaux**" أنّ «الخطاب الحجاجي خطاب غائي حجاجي بالضرورة؛ لأنّ هناك خطابات ذات غاية شخصية لا تهدف إلى إقناع الآخر؛ فالخطاب الشعري وبعض أنواع السير الذاتية والمذكرات الحميمية أمثلة لخطابات غائية ليست حجاجية»[9]، وهو بذلك يخرج الشعر من إطار الحجاج معتبرا إيّاه نقلا لتجربة فردية غايته شخصية.

غير أنّ المتأمل في حقيقة "الشعر" وطبيعة العملية الإبداعية يعي أنّ يتأسس بالإضافة إلى وظائفه المعلومة من شعرية وانفعالية، على "الوظيفة التوجيهية والإقناعية"؛ والتي قد يعبِّر عنها الشاعر مثلا بالتعجب والندبة والاستغاثة والأمر والنداء أو بأسماء الأفعال و الروابط التداولية الحجاجية، وبالتالي «فالنص الشعري ليس لعبا بالألفاظ فقط، وليس نقل تجربة فردية ذاتية فحسب؛ إنّه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج، وهو يسعى كذلك إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه »[10].وبهذا نستشف بأنَّنا نستطيع أن نقول إنّ هناك شعرا فرديا للإمتاع، كما هناك شعر حجاجي للإقناع، وهذا ما أكدّ عليه جلّ البلاغيين على رأسهم "**حازم القرطاجني**" الذي أخذ موقفا توفيقيا بقوله «فما كان من الأقاويل القياسية مبنيا على التخييل وموجودة في المحاكاة، فهو يعد قولا شعريا، سوء كانت مقدمات برهانية أو جدلية أو خطابية، يقينية أو مظنونة، وما لم يقع فيه من ذلك بمحاكاة فلا يخلو من أين يكون مبنيا على الإقناع خاصة، كان أصيلا في الخطابة دخيلا في الشعر سائغا فيه، وما كان مبنيا على الإقناع ممّا ليس فيه محاكاة فإنّ وروده في الشعر و الخطابة عبث وجهالة »[11].وندرك من هذا القول أنّ حازم كان أكثر اعتدالا لقضية الحجاج، وحضوره القوي في الشعر، فبالرغم «من أنّه يؤمن بأنّ الإقناع والتخييل مما يميز الخطابة من الشعر، فقد أشار في غير موضع أن الخطابة قد تستعمل التخييل، والشعر قد يستعمل الإقناع »[12]. ونقول في الأخير إنّ الشعر لغة، وكل لغة حجاج، إذن **فالشعر حجاجي**.

4-التحليل الحجاجي للقصيدة:

ألفنا المناهج المتداولة في تحليل النص الأدبي تؤسِّس دراساتها على استراتيجيات متنوِّعة في البنية النصية منها "العنوان"؛ وهو عتبة النص الأولى، أو البنى اللغوية الداخلية المتراصة في تشكيل النص، أو الصور البلاغية، أو غير ذلك من الآليات التي تبتغي الإحاطة بعالم النص في صفته الكلية. غير أنّ المنهج الحجاجي لا يقف عند هذا الحد؛ بل يأخذ بالنص على أساس أنّه فعل كلامي أكبر ينتقل من الغايات التي ركزت عليها المناهج الحديثة؛ وهي الإفصاح والتأثير، إلى غاية أكثر أهمية؛ وهي "الإقناع". ولذا نحاول بدايةً في قصيدة "**إقرأ كتابك**" تحديد مناسبتها، والتي نظمها شاعر الثورة وهو بسجن "البرواقية" بمناسبة الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية يوم الفاتح نوفمبر 1958، وألقيت بالنيابة في إذاعة "صوت العرب" بالقاهرة.

فالمتكلِّم هو الذات المنشئة لهذا النص أو (الأنا الناظمة ، الشاعر مفدي زكريا)، أمّا المتلقّون (الأنت المتلقية) فقد نوّع الشاعر فيهم؛ إذ خاطب في بعض الأبيات "الشعب الجزائري ككل"، يذكرهم بالفاتح نوفمبر، وفي أخرى "فرنسا" على أعمالها وجرائمها (أنتم)، وفي أخرى "**مراكش والخضراء (تونس) والعراق ومصر**؛ والتي نوّه ببطلها **جمال عبد الناصر** "، و"من يريد" أخذ العبرة من أبطال الجزائر، ومثلها في **الذبيح (الشهيد أحمد زبانة)** الذي أيقظ بصرخاته الأمل في الحرية والتحدي للاستعمار.

ويمكن توضيح هيكل القصيدة وتناميها في المخطط التالي:

حجاجية القصيدة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

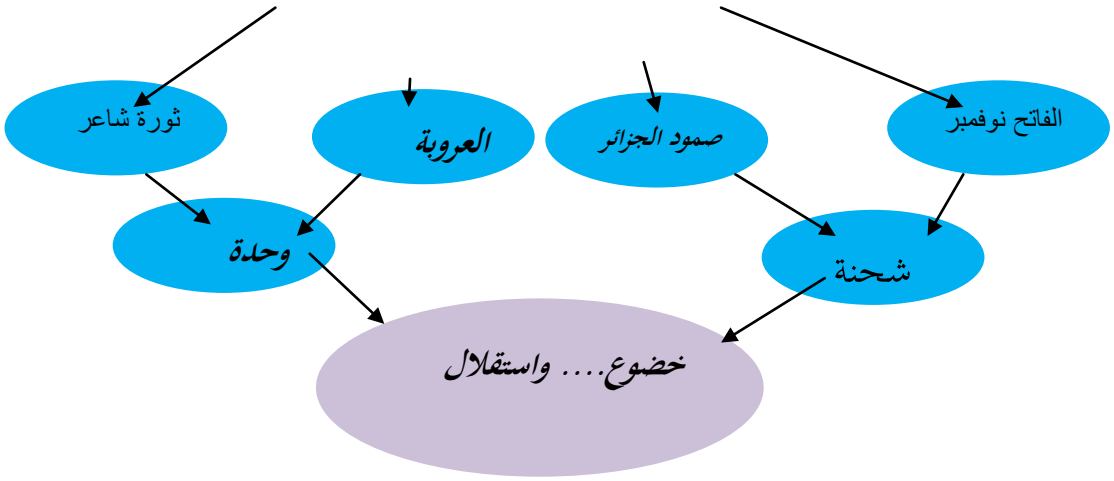

يتبدّى لنا من هذه الخطاطة التي تبيّن المجرى العام للقصيدة ومدى تحقق الحجاجية فيها، أنّ مفدي زكريا ينوّه بالفاتح نوفمبر الذي أحدث تغييرا جذريا في شعبٍ خُطِفت له حريته، ويظهر جليا من الأبيات التالية[13]:

هَذَا(نُوفَمْبَر)، قُمْ! وَحَيِّ المَدْفَعَا...

وَاقْرَأْ كِتَابَكَ، لِلْأَنَامِ مِفْصَلاَ...

واصدع بثورتك الزمان وأهله...

واعقد لحقك في الملامح ندوة...

وقل: الجزائر..!واصغ أن ذكر اسمها...

شقت طريق مصيرها بسلاحها....

شعب، دعاه إلى الخلاص بُناته...

وبيّن شاعر الثورة في مقام آخر كيف صمد الشعب الجزائري في وجه الاستعمار الذي استضعفه وسخّر من ثوّاره الذين لَبُّوا نداء الرشّاش، وبشتى الوسائل لإضعاف إرادته، والحد من عزيمته، وإصراره على تحقيق النصر وهذا ما تبرهن عليه هذه الأبيات[14]:

استقبل الأحداث ، منها ساخرا...

وأراده المستعمرون، عناصرا...

واسضعفوه، فقرروا إذلاله...

واستدرجوه، فدبّروا إدماجه...

وعن العقيدة، زورّوا تحريفه...

وتعمدوا قطع الطريق، فلم تُرد...

وكل هذه المحاولات كانت لخنق الثورة حيث تمادى الاستعمار الغاشم بظلمه، وهمّ كالثور الهائج لتضيّيق الخناق على الجزائر فهمَّ بقطع كل أواصر المحبة والتشجيع مع أحباب الوطن الأم، بعدما التفوا حوله وساندوه بالشام بلد الإحساس والمواقف:

إمّا تنهد بالجزائر موجع آسى الشام جراحه، وتوجعا

ثم أرض كنانة "العراق" التي استقبلت الثورة الجزائرية بقلب جريئ:

واهتز في أرض الكنانة خافق وأقضَّ في أرض العراق المضجعا

إلى أن يحط بنا الرحال في الأرض الخضراء، ثم بالبلد الشقيق المغرب، ليرحل إلى مصر لتسمو العروبة في سماء زرقاء وهذا ما تبرزه هذه الأبيات[15]:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وارتج في الخضراء، شعب ماجد لم تثنه أرزاؤه أن يفزعا
وهوت مراكش حوله، وتألمت لب نان، واستعد جديس وتُبّعا
فتماسكت بالشرق جمهورية عربية، وجدت بمصر المرتعا
تلك العروبة إن تثر أعصابها وهن الزمان حيالها وتضعضعا

ثم يأتي بعد ذلك حسّ الشاعر وثورته ضدّ فرنسا التي ارتضت الموت والإذلال لشعب أراد الحياة، فوجدت أمامها شاعرا متسلّحا بنور الاستقلال، ومتشبعا بروح المقاومة لآخر نفس، وبكل حماس وقوة وشجاعة يقول[16]:

هذي خواطر شاعر،غنىّ بها في(الثورةالكبرى) فقال وأسمعا
وتشوقات، من حبيس موثق ما انفك حبا بالكنانة مولعا
خلصت قصائده، فماعرف البكا يوما، ولا ندب الحمى والمربعا
إن تدعه الأوطان، كان لسانها أو تدعه الجلى، أجاب وأسرعا

كل هذه الأفكار تلاحمت لتكون حججا لفرنسا تنطق بلسان الحرية حروفا تآلفت لترفع راية الاستقلال والحرية في وجه مستعمر ساوم الشعب على أرضه، وما ساعده على توالي هذه الحجج معجمه اللغوي الذي استقى منه مادته اللغوية، فقد كانت ذات صلة مباشرة بالواقع التاريخي الذي عرفته الجزائر إبّان الثورة التحريرية، إلى جانب تلك الألفاظ التي تعكس الأبعاد التاريخية والثقافية للشعب الجزائري وعلاقته المميزة بالشعوب العربية وشعار هذه العلاقة الوحدة العربية التي روحها العروبة. وقد نوّع من أنماط التركيب التي بنى عليها الشاعر نصه الشعري؛ إذ كانت بسيطة تخدم البعد الإبلاغي الذي ابتغاه. ونلاحظ أن كل هذه المعطيات تساعد على تلقي النص وتحليله. والأبيات التالية تعكس ذلك[17]:

تلك الجزائر...تصنع استقلالها تخذت له، مُهج الضحايا، مصنعا
وامتصها المتزعمون، فأصبحت شلوا بأنياب الذئاب ممزعا
خبر فرنسا، يا زمان بأنّنا هيهات، في استقلالنا، أن نُخدعا
واستفت يا ديغول، شعبك، إنه حكم الزمان، فما عسى أن تصنعا
شعب الجزائر، قال في استفتائه لا!! لن أُبيح من الجزائر إصبعا
واختار يوم(الاقتراع) نفمبرا فمضى، وصمّم أن يثور، ويقرعا

أ–إبلاغية العنوان:

العنوان مفتاح القصيدة، إنّه العنصر والإطار الأول الذي يقوم عليه فعل التأويل أو القراءة. والعنوان الذي ارتضاه شاعر الثورة مفدي زكريا هو: "**اِقرأ كتابك**"؛ وهذه العتبة توحي بقداسة وعظمة هذا الكتاب، والذي لا بديل عنه لإيقاظ الهمم، وإبقاء نار الثورة شاعلة تلهب كل من يستخف بلهبها. ومن هنا نستطيع القول بأنّ هناك قراءة ضمنية تنسجم مع التحليل الحجاجي الذي سوف يستبان من خلال توظيف المنهج الحجاجي، وتظهر هذه القراءة في وعيد المستعمر بالمقاومة إلى آخر نَفَس بالرغم من كل ما يقوم به من تصرّفات تقهر الشعب الجزائري المصمم على الاستقلال، وقراءة ثانية توحي وتعبّر عن مدى اتحاد الشعوب العربية التي وحّدها الإسلام وقوّاها ظلم الاستعمار بمختلف أشكاله، وقرّبتها الأخوة، وجمعَ شتاتها التحرّر والاستقلال من عتمة الاستعمار والاستعباد.

ب– الفعل الإنجازي الكلي للقصيدة:

تهيمن على القصيدة أفعال إنجازية مضبوطة تخدم في جوهرها الوظيفة الإجمالية التي يريدها الشاعر، وهي "الأفعال التقريرية Assertives"، والغرض منها كما يذكر "سيرل Searle" و"فاندرفيكن Vanderveken" هو "الغرض التقريري"،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و«اتجاه المطابقة في الغرض التقريري هو من القول إلى العالم... والشرط المعَدُّ لجميع التقريريات هو حيازة المتكلِّم على شواهد أو أسس أو مبرِّرات ترجِّح أو تؤيِّد صدق المحتوى القضوي والحالة النفسية التي تبرر عنها التقريريات هي الاعتقاد» [18]. قد نوضِّح ذلك من خلال قول الشاعر:

هذا (نوفمبر)، قـ[illegible] وحيّ المدفعا وأذكر جهادك... والسنين الأربعا
إنّ الجزائر في الوجود رسالة الشعب حرّرها، وربك وقعا
وقصيدة أزلية، أبياتها حمراء، كان لها (نوفمبر) مطلعا
نظمت قوافيها الجماجم في الوغى وسقى النّجيع روّيها، فتدفعا
غنى بها حرّ الضمير، فأيقظت شعبا إلى التحرير شمّر مصرعا
سمع الأصم رنينها، فعنا لها ورأى بها الأعمى الطريق الأنصعا
ودرى الألى، جحدوا الجزائر، أنّها ثارت، وحكّمت الدما، والمدفعا
شقت طريق مصيرها بسلاحها وأبت بغير المنتهى، أن تقنعا
شعب، دعاه إلى الخلاص بُناته فانصب مذ سمع الندا، وتطوعا

أما وظيفة هذه الأفعال فهي إقناع الشاعر فرنسا بأنّ الشعب الجزائري سيبقى صامدا مادام "نوفمبر" يعيش في كل قلب جزائري وصوته ضمير حي يعلو ويعلو ليحقّق النصر ويقمع ظلم الاستعمار وجبروته، وعلى هذا الأساس ظلّ الشاعر يشرح ويوضِّح إنجازية "نوفمبر"، وكذا كلّ الثوار الذين لبّوا النداء وزادهم في ذلك إيمانهم القوي بالثورة وبالفداء من أجل تحرير الوطن ،كما قام شاعر الثورة بتوظيف أصناف أخرى من الأفعال الكلامية التي تخدم هذه الوظيفة ويدعّمها، وتسمى "أوجه إنجاز مساعدة"، فـ«المتكلّم يجب أن يبني فعله الكلّي على نحو تُتَجنب فيه أشكال سوء الفهم والرفض وردود الفعل غير المرغوب فيها من جانب السامع تبعا لإمكانيةٍ، ... توجد الإمكانية من خلال دعمه فعلا إنجازيا مهيمنا بفعل إنجازي مساعد، ويحدث ذلك على أساس معارف نظام أنماط أفعال إنجازية» [19]. قد نوضِّح قيمة هذه الأفعال الإنجازية من خلال التركيز على الأصناف التالية[20]:

شعب، دعاه إلى الإخلاص بُناته فالنصب مذ سمع الندا، وتطوعا
نادى به جبريل في سوق الفدا فشرى وباع، بنقدها وتبرعا
فلكم تصارع والزمان، فلم يجد فيه الزمان–وقد توحد– مطمعا

أ–"**الطلبيات Directives**": وهي الأفعال التي يجعل من خلالها المتكلّم المخاطب يقوم بفعل ما؛ مثالها الأمر والطلب والعرض، وغيرها[21]. والغرض منها هو الغرض الأمري (الطلبي)، واتجاه المطابقة فيه يكون من العالم إلى القول، والمسئول عن إحداث المطابقة هو المخاطب[22]. والحالة النفسية التي يعبَّر عنها في هذه الأفعال هي الإرادة والرغبة، وهي تخلق للمخاطب أسبابا كي يؤدي المطلوب منه. ونلحظ استعمال هذا الصنف من خلال الأفعال الكلامية في قول شاعر الثورة[23]:

هذا (نوفمبر)، قـ[illegible] وحيّ المدفعا وأذكر جهادك... والسنين الأربعا
واقرأ كتابك، للأنام مفصلا تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا
واصدع بثورتك الزمان وأهله واقرع بدونك الورى و(المجمعا)
واعقد لحقك في الملامح ندوة يقف السلاح بها خطيبا مصقعا!
وقل: الجزائر..!واصغ أن ذكر اسمُها تجد الجبابر ساجدين وركعا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شقت طريق مصيرها بسلاحها وأبت بغير المنتهى، أن تقنا
شعب، دعاه إلى الخلاص بُناته فانصب مذ سمع الندا، وتطوعا

فهذه المقطوعة تقوم على أصناف تعبيرية متنوّعة لها علاقة مباشرة بأنماط الأفعال الإنجازية المقصودة، نوضّح ذلك من خلال قول المتكلّم: هذا نوفمبر" قم" و"اقرأ كتابك"، و"قل واقرع واصغ" وغيرها ، هي نماذج عن طبيعة العلاقة التي بنيت على أساسها الأفعال الكلامية وأبرزت الوظيفة الإنجازية للنص ككل.

-بالإضافة إلى "**البوحيات Expressives**" التي ترتهن بالحالة النفسية للمتكلّم وما قد يثيره من مشاعر إزاء المخاطب. و«الغرض من البوحيات ذات الصيغة ق(ض) هو التعبير عن موقف أو مشاعر حيال الواقعة التي تعبّر عنها القضية (ض) (الواقع)»[24]. والقضايا التي تتضمّنها ترتبط أكثر بنحو ما بالمتكلّم أو المخاطب، والشرط المعدّ لأغلب البوحيات هو تحقيق المحتوى القضوي سلفا؛ إذ يعبّر المتكلم فيها عن حالته النفسية اتجاه الواقعة المفروض تحقّقها. وقد وظّف الشاعر هذا الصنف خدمة للوظيفة العامة للقصيدة؛ وهذا ما نلمسه في قوله:

وطن، يعزّ على البقاء، وما انقضى رغم البلاء، عن البلى، متمّنعا
لم يرض يوما بالوثاق، ولم يزل متشامخا مهما النكال تنوعا
هذي الجبال الشاهقات، شواهد سخرت، بمن مسخ الحقائق وادّعى
سل(جرجرا) تنبئك عن غضباتها واستفت (شليا) لحظة و شلعلعا
واخشع ب(وارشنيس) إنّ ترابها ما انفك(للجند المعطّر) مصرعا
كسرت تلمسان الضليعة ضلعة وهى (بصبرة) صبره فتوزعا
ودعاه (مسعود) فأدبر ، عندما لاقاه (طارق) سافرا ومقنّعا
اللّه فجّر خلده، برمالنا وأقام عزرائيل، يحمي المنبعا!
تلك الجزائر... تصنع استقلالها تخذت له، مُهَجَ الضحايا، مصنعا

ففي هذا الأبيات علاقة مباشرة مع أنماط الأفعال الإنجازية المقصودة، فالأنا المخاطِبة ههنا هي ذات الشاعر، أما المخاطَب فهو "فرنسا" بجبروتها وقوّتها، لكن رغم هذه القوة فعزمُ الشعب الجزائري ماضٍ لا يعرف التردّد أو التراجع، وهذا ما نستنبطه من الأفعال الكلامية المبسوطة في المقطوعة السابقة؛ منها "**سل** "، "**واخشع**"، "**كسرت تلمسان**".

ويجب أن نشير إلى أنّ الشاعر قد استعمل المجاز في الأفعال التقريرية (أفعال كلامية غير مباشرة) مما يفتح مجالا جديدا لحركة الإخبار التي أرادها الشاعر، ولكنّه ظلّ يقدّم أنماطه وفق المبتغيات المقصدية التي ظلّت تحرّكه؛ وهو يمثّل في جوهره «عاملا فعالا في تعويض الواقع الفعلي من الخطاب الشعري، بحكم عدم أهلية اللغة في عمومها لنقل تفاصيل التجربة في الواقع الحقيقي الذي أفرزها»[25].

ولنوضّح ذلك نمثّل بالتشبيه بوساطة الأداة الذي تكرّر عند الشاعر منها على سبيل المثال في قوله" **ورأى القنابل كالصواعق**، وغير ذلك من الأفعال الإخبارية التي تعطي لهذه القصيدة بعدا تأثيريا أبلغ من التقرير المباشر.

جـ-الروابط الحجاجية:

هناك جملة من المؤشّرات التي تربط بين الحجج والنتائج وتنظم العلاقات بينها، من أهمّها الروابط أو أدوات الربط التي درسها "ديكرو" وخصّ هذه الدراسة لـ "لكن ، إذن، حتما"، كما درس فضلا عن ذلك «الروابط التي تفيد السببية من مثل "لأنّ" و"بما أنّ" و"لذلك"، وتفحّص اختلافاتها... وهذه الروابط تمس بشكل مباشر التحليل الحجاجي، أين أُضيفت لوظيفة الربط، وظيفة أخرى هي وظيفة الربط التعليلي والعلاقة الحجاجية»[26].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويمكن أن نميّز بين الروابط الحجاجية والعلاقات الحجاجية؛ فالأولى تضم مجمل الأدوات التي توفرها اللغة ويستغلها الباث من أجل «الربط بين مفاصل الكلام ويصل بين أجزائه فتتأسس عندها العلاقة الحجاجية المقصودة التي يراها مؤسس الخطاب ضرورية»[27].

أمّا الثانية؛ أي "العلاقات الحجاجية" فهي كثيرة من أهمّها: علاقة التتابع أو السببية، أو الاقتضاء، أو استنتاج.

أ–روابط الوصل والفصل:

إنّ مهمة هذه الروابط الربط بين الجمل، ولكلّ رابط معنى يحدد وظيفتها، بالإضافة على السياق الذي تكون فيه، كما أنّ معنى الرابط لا يكتمل إلاّ مع اسم أو فعل يصحبه، ثم إنّ معرفة هذا المعنى تمكن المتكلم من اختيار ما يناسبه في الخطاب.

1–روابط الوصل:

"الوصل Conjonction" هو "علاقة منطقية تتمثل في تكوين قضية مركبة انطلاقا من قضيتين بسيطتين بواسطة الرابط "و" مثلا"[28]. وهذا ما عزّزه أكثر "فان ديك Van Dijk" حيث اصطلح عليها بمصطلح "روابط الوصل التشريكي"، أمّا الوظيفة المخول إليها فهي "تكوين جمل مركبة من جمل بسيطة، وعلى ذلك فعمل هذه الروابط هو حصول الإجراء الثنائي"[29].

ومن أبرز الروابط الغالبة في القصيدة هي" **الواو**"، وتوظّف في أصلها للعطف، وتفيد إشراك معاني متعدّدة في حكم واحد، وكذا الجمع بينها، وهذا ما وجدناه ماثلا في هذه الأبيات[30]:

و استقبل الأحداث، منها ساخرا...

و أراده المستعمرون، عناصرا...

واستضعفوه ، فقرروا اذلاله....

واستدرجوه، فدبّروا إدماجه....

وعن العقيدة، زوروا تحريفه.....

و تعمدوا قطع الطريق، فلم تُرد....

فكل هذه المقاطع تؤكّد مدى حقارة الاستعمار وتفنّنه في إيذاء القضية الجزائرية والاستخفاف بالثورة، ومحاولة طمس عقيدة الشعب، لذا وظّف الشاعر الواو للربط بين هذه الحقائق التاريخية، كما نجده في موضع آخر يوظّفها ليبيّن لنا صموده، وأنّه شاهد عيان للثورة بكل أحداثها في قوله[31]:

هذي خواطر شاعر ،وغنىّ بها — في (الثورة الكبرى) فقال و أسمعا

وتشوقات، من حبيس موثق — ما انفك صباّ ، بالكنانة مولعا

ورأى القنابل كالصواعق، إن هوت — تركت حصون ذوي المطامع بلقعا

ورأى الجزائر، بعد طول عنائها — سلكت بتوراثها السبيل الأنفعا

وفي موضع آخر وظّف الشاعر رابطا آخر؛ وهو "إنّ وأنّ"، ويرى النحاة أنّها تستعمل للتأكيد والتحقيق، وهذا ما أراده في هذه الأبيات؛ إذ يقرّ حقيقة جوهرية مفادها أنّ رسالة الجزائر ستظلّ أسمى رسالة في هذا الوجود، وقطعة قدسية بتضحيات شعبها وسيشهد التاريخ على نوفمبر وهي[32]:

إنّ الجزائر في الوجود رسالة — الشعب حرّرها، وربّك وقعا

إنّ الجزائر قطعة قدسية — في الكون لحنه الرّصاص ووقعا

وأراده المستعمرون، عناصرا — فأبى مع(التاريخ) أن يتصدّعا

واستضعفوه، فقرروا إذلاله — فأبت كرامته له أن يخضعا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واستدرجوه، فدبروا إدماجه فأبت عروبته له أن يبلعا

ونلاحظ من هذه الأبيات أنّ الشاعر يقرّ بحقيقة قام بها المستعمر ضد شعب رفض الإدماج، وصمم على حفظ كرامته بالثورة والاستقلال.

2- التكرار:

كما نجد الشاعر استعمل التكرار بأنواعه، فقد وظّف على سبيل المثال لا الحصر "التكرار اللفظي"، لما له من وقع في القلوب، وأثر بليغ في الأسماع والأذهان، ممّا يجعله رافدا مهمّا للحجاج في الأبيات الشعرية، ولكن الشاعر استطاع أن يحسن الصيّاغة، وكانت له القدرة على إحلال اللّفظ المكرّر أو التركيب المستعاد محلّه المناسب في البيت، فلا ينقلب التكرار عندها إلى عيب يشين البيت. وقد كرّر لفظة "الجزائر" و"الدرى الألى" في قوله[33]:

ودرى الألى، جهلوا الجزائر، أنّها قالت: "أريد" فصمّمت أن تلمعا ودرى الألى، جحدوا الجزائر، أنّها ثارت، وحكمت الدما، والمدفعا

يا مصر! يا أُختَ الجزائر في الهوى! لك في الجزائر، حرمة لن تقطعا!

شعب الجزائر، قال في استفتائه لا!! لن أُبيح من الجزائر إصبعا...

3-السلّم الحجاجي L'échelle Argumentative:

وقد عرفه" **طه عبد الرحمن**" بأنّه "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية موفية بالشرطين التاليين:

1-كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

2-كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه"[34].

وقد شرح هذا السلّم أكثر "ديكروDucrot " باستعماله لفظة"PlusQue فمثلا: لفظة جامد أشد من بارد، ولفظة بارد أشد من منعش، والشيء نفسه ينطبق على الماء الساخن والدافئ والحار، أو بين الفعل ألزم وأوصى وسمح. ويمكن المقارنة بين ذلك من خلال المجموعات الثلاثة، حيث سينشأ وصفها حتى لو لم يتم تحديد العلاقة أشد من"، وكيفية تحديد هذه العلاقة هو الذي يشكل هذه السلالم"[35]، ويمكن توضيح هذه الأمثلة عموديا بالشكل التالي:

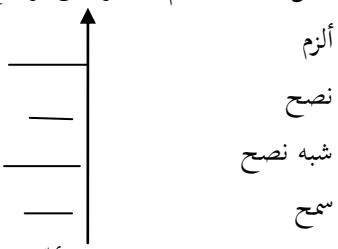

ونستشف من هذا المخطط أنّ هناك اتجاها ووجهة للسلم لنصل إلى المعنى، وبهذا المفهوم «إذا كان يمكن إنشاء فعل حجاجي، فإنّ القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحا أو مضمرا»[36].

وسنحاول أن نطبّق ذلك مع قصيدة مفدي زكريا؛ فمن البيت الأول إلى البيت الحادي عشر يضم الأفكار التالية:

1-نوفمبر ميلاد ثورة مجيدة.

2-شعب لبى نداء الفداء وهم بحمل السلاح.

3-تطيب بدماء الاستشهاد والتوجه لطريق التحرر من قيود الاستعمار.

فهذه كلها حججا لكنها متفاوتة من حيث القوة والضعف وقد يكون السلم الحجاجي كالآتي:

نتيجة: الطريق نحو الاستقلال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

–تطيب بدماء الاستشهاد والتوجه لطريق التحرر من قيود الاستعمار _____

شعب لبى نداء الفداء وهم بحمل السلاح بشجاعة ___

نوفمبر ميلاد ثورة مجيدة، دونها التاريخ في صفحة ناصعة البياض ____

وكل قول يرد في درجة ما من السلم يلزم عليه القول الذي يليه، ويكون القول الذي يعلوه أقوى منه، فاندلا ع الثورة، واندفاع شعب لهذه الأخيرة هي حجج قوية، بَيْد أنّ الاستشهاد والتضحية لتحقيق النصر هي أقوى حجة في السلم.

ثم نلمس في الأبيات التي تلي عظمة نوفمبر **(من البيت السادس عشر إلى البيت التاسع والعشرين)** حججا متفاوتة القوة، نجمل معناها في الأفكار التالية:

1–مستعمر مستخف بالثورة الجزائرية.

2–محاولات مكثفة لإضعاف عزيمة قلوب ثائرة، بتضييق الخناق على مؤيديها؛ الشام، العراق، تونس الخضراء، جوهرة المغرب مراكش.

3–تماسك واتحاد ومساندة من الأشقاء رغم الأ لم الظلم من مستعمر مستبد مستعبد.

4–مصر رمز العروبة (بشعبها وحاكمها الفذ بجمال عبد الناصر، وتصديه لأشقاء الاستعمار وهجوماته العنيفة على حدوده حائط المبكى. ويمكن تمثيل هذه القوى في السلم الحجاجي التالي:

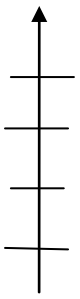

النتيجة: وحدة عربية.

مصر رمز العروبة (ببشعبها بحاكمها الفذ بجمال عبد الناصر...،

تماسك واتحاد ومساندة من الأشقاء رغم الألم...

محاولات مكثفة لإضعاف عزيمة قلوب ثائرة، بتضييق الخناق

مستعمر مستخف بالثورة الجزائرية

ونستشف من هذه القوى، والتي أساسها مستعمر لم يعر ثورة الشعب الجزائري أي قيمة، تم تليها مساعي لإطفاء نور هذه الثورة المباركة بقطع الإمداد عنها من الدول المساندة، ومنعها حتى الاعتراف بها، ثم إلى حجة قوية أوحت بشرعية هذه الفاتح نوفمبر، ثم أخيرا نصل إلى أشد وأقوى حجة هي مصر التي عززت الثورة وأسمت صوتها المخنوق إلى الرأي العام ككل وبالتالي حققت الوحدة العربية.

إلى أن نصل في الأخير لقوى حجاجية لها علاقة قوية بالشاعر مفدي زكريا؛ وهي الأبيات الأخيرة من القصيدة التي عمد فيها تبيين تجربته الصادقة مع هذه الثورة المجيدة ويمكن عرضها في الحجج التالية:

1–شاعر وشاهد عيان، أسمع صوته للعا لم .

2–شاعر أرسل وثائق تدين المستعمر: الذبيح بسجن بربروس، وهزائمه في جبال جرجرة، وتلمسان وصبرة، وحاسي مسعود.

3–شاعر حمل لواء الثورة والتحدي.

4–شاعر قدس نوفمبر فقدسه ولم يرضى بالاستقلال بديلا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويكون السلم الحجاجي كالآتي:

النتيجة: الحرية و استرجاع كل أرض الوطن.

شاعر آمن و قدس نوفمبر فقدسه ولم يرض بالاستقلال بديلا

شاعر حمل لواء الثورة والتحدي.

شاعر أرسل وثائق تدين المستعمر: الذبيح بسجن بربروس،وهزائمه

شاعر وشاهد عيان، أسمع صوته للعالم .

خاتمة:

لعلّنا نكون قد أدركنا أنّ المنهج الحجاجي له فعالية كبرى في تحليل النص الشعري واستجماع كل علاقاته التركيبية، بالإضافة إلى أساسياته التي تتمظهر على شكل روابط حجاجية كفيلة بخلق حوارية بين القصيدة وعالمها المنتج فيها من جهة، باعتبار أن هذا التحليل يتجاوز الوصف الشكلي القائم على التجزئة من غير ربط كل تلك الأفكار، وإنما ينسجها ضمن علاقات حجاجية تعكس المعاني الكلية للقصيدة، وكذلك تعزيزها بكل الحجج القوية لتي لها دور كبير في ضبط مقاصد الشاعر، وغايات القصيدة.

الهوامش:

[1] **–voir Ducrot ;dire et ne pas dire ;hermen ; paris ;1972.286**

[2]**–صابر حباشة، التداولية والحجاج، ص18.**

3–المصدر نفسه، ص18.

4–ينظر أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ص54.

5–محمد عيد، النص الحجاجي العربي ، دراسة في وسائل الإقناع ،كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الرابع، "الحجاج و المراس"، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010، ص5.

6–ينظر، محمد عيد ، المرجع نفسه، ص 6.

7–ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، ص28.

8–ينظر ، أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، ص36.

9–محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص40.

10–محمد طروس، المرجع نفسه ص37.

11–منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت الحبيب بالخوجة، تونس، 1966، ص 67.

12–أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، ص36.

13– مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص57.

14– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص59.

15– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص60.

16– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص64.

17– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص67.

18– نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، د.طالب سيد هاشم الطبطبائي، الكويت مطبوعات جامعة الكويت، 1994، ص28.

19–كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ، ترجمة سعيد حسن بحيرى، ص119.

20– مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص59.

21–ينظر عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، بيروت دار الطليعة، ط1/1990، ص98.

22–عادل فاخوري، المصدر نفسه، ص31.

23– مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص57.

24– طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص32.

25– في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، د.نواري سعودي أبو زيد، ص81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

26–Voir Ruth amossy ; L'argumentation dans le discours, Discour politique, littérature ,D'idées ,Fiction Nathan, Paris 2000,p 159

27– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 318.

28–آن ريبول جاك موشلار،التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر سيف الدين دغلوس، محمد الشيباني، ص276.

29– النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، المغرب، افريقيا الشرق، 2000،ص38.

30– مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص59.

31– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص64.

32– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص58.

33– مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص58.

34– اللسان والميزان أو التلئوثر العقلي، مركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط2، ص277.

35 –voir J C ,Anscombre et Ducrot ;l'argumentation dans la langue,philosophe et langue ,p54

36– أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ص21.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com